**المحاضرة 04: العلاقات الخارجية للجزائر في العهد العثماني ومكانتها الدولية.**

**العلاقات الجزائرية –الفرنسية أنموذجا**

**هدف المحاضرة:** ادراك الطالب لمسار العلاقات الجزائرية الفرنسية في العهد العثماني .

**تمهيد:**

فرضت الجزائر إرادتها على الدول الأوروبية وجعلتها تدفع لها الإتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لسفنها في حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان لها هذا بفضل امتلاكها لأسطول بحري قوي، فكانت الجزائر تعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية باستمرار من أجل الدفاع عن استقلالها الخارجي، حيث كانت ترفض الاعتراف بالمعاهدات التي كانت تبرمها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية، والتي كان يعتبرها الباب العالي سارية المفعول في جميع أنحاء الإمبراطورية، ومثال على تلك المعاهدات التي أبرمتها الدولة مع النمسا في 04 أوت 1791م.

وبما أن الجزائر لم تكن تلتزم بمثل هذه المعاهدات ولا تعترف بحرية التنقل البحري إلا لسفن الدول التي تتعاقد معها رأسا، حيث قام الأسطول الجزائري بالاستيلاء على السفن النمساوية لأن النمسا لم تكن من الدول المتعاقدة مع الجزائر، هذا ما جعل بالنمسا تتقدم بالاحتجاج لدى الباب العالي فبعث لسلطات العثمانية برسالة إلى الداي حسن باشا تأمره بإرجاعها

**–علاقة الجزائر بالباب العالي :**

إن طبيعة العلاقات التي جمعت بين الباب العالي والجزائر تميزت بأنها علاقة انتماء وولاء، ومن مظاهر تلك العلاقة في الجانب السياسي تمثلت في تبادل الهدايا وصك العملة باسم السلطان، بالإضافة إلى الراية التي جمعت بينهما، أما في ما يخص العلاقات الخارجية كانت داخل إطار الدولة العثمانية، وفيما يخص الجانب العسكري كانت العلاقات مرآة عاكسة على متانة صلة الجزائر بالدولة العثمانية، أما في نطاق التعاون فظلت الدولة تقدم مساعدات عسكرية في شكل هدايا للإيالة مدعمة بذلك بجهاز عسكري، كما أن التجنيد من أهم العناصر التي ربطت الجزائر بالدولة العثمانية والتعاون العسكري بين الطرفين تجسد من خلال الحروب التي خاضتها الجزائر مع الدولة العثمانية مثل معركة ليبانت سنة 1571م وحرب البنادقة سنة 1639م، وفيما يخص الجانب الإداري امتاز الوجود العثماني بالجزائر بتقسيم الإيالة إلى مقاطعات من أجل تسهيل التحكم في الحدود الشاسعة لها، وتعيين الحكام عليها من طرف العنصر التركي وكذلك بالنسبة للقضاء فكان الحاكم هو صاحب السلطة السياسية والقضائية.

**-طبيعة العلاقات الجزائرية الفرنسية في القرن 16م:**

عرفت العلاقات العثمانية الفرنسية تميزا وتنوعا فتعود الاتصالات الأولى بين الجانبين إثر تهديدات شارل الخامس للملك الفرنسي فرنسوا الأول والذي استنجد بالدولة العثمانية عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، حيث سعى شارل الخامس إلى الانفراد بقيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وقد رأى الملك الفرنسي أن الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة القادرة على الحد من توسعات شارل الخامس وإنقاذ مملكته وكان غزو شارلكان لتونس عام 1535م فرصة سامحة لفرنسوا الأول ليبدأ الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية، التي انتهت بإبرام معاهدة الامتيازاتوالتي هي في الأصل معاهدة للتعاون والصداقة بين الدولة العثمانية وفرنسا

بعد التحاق خير الدين بربروس بالدولة الجزائرية، اكتسبت العلاقات الجزائرية الفرنسية طابعها الدولي وكانت هذه المرحلة تعد الانطلاقة العملية المباشرة، حيث قام خير الدين ومعه جزء كبير من بحريته بزيارة إلى مرسيليا يوم 5 جويلية 1543م، واستقبل استقبالا فاخرا، وقد كانت هذه الزيارة بطلب من ملك فرنسا "فرانسوا الأول" الذي استنجد بالجزائر ضد الإمبراطور شارلكان وملك إنكلترا هنري الثامن اللذين كان يهددان فرنسا، لذلك حرصت فرنسا على توطيد علاقاتها برؤساء دولة الجزائر.

كان حرص فرنسا على إقامة علاقات دبلوماسية مع الجزائر ينبع من رغبتها العميقة في استغلال خيرات البلاد الاقتصادية واحتكار استثمار المرجان الذي كان ساحل القالة وعنابة مصدرا هاما له، فأخذت التجارة الفرنسية طابعا قارا في السواحل الجزائرية انطلاقا من معاهدة 1543م، فبنت مركزا تجاريا في مدينة القالة لتصدير الحبوب وخاصة القمح والصيد المرجان وتصديره إلى فرنسا أيضا وذلك سنة 1561م .

ومن القضايا الهامة في تاريخ العلاقات بين فرنسا والجزائر والدولة العثمانية كان اعتماد القنصل الفرنسي بالجزائر عام 1564م، حيث أمر الملك الفرنسي بتعيين قنصل فرنسي في الجزائر بحجة أن أصحاب السفن الفرنسية قدموا شكاوى ضد القراصنة الذين استولوا على سفنهم وسلبوهم أموالهم.

منع الجزائريون نزول القنصل بالمدينة، هذا ما اضطر بملك فرنسا للاتصال بالباب العالي، والذي أصدر فرمانا يقضي بتعيين قنصل فرنسي بالجزائر، إلا أن حسن فنزيانو (1577-1580م) رفض استقباله ما لم يقدم إتاوات، فأصدر السلطان العثماني مراد الثالث (982هـ/1574م) أمرا بخصوص

ذلك أدى إلى نزول القنصل الفرنسي "موريس مورون" إلى مدينة الجزائر وكان في استقباله الداي جعفر (1580-1582م)

لم تعرف العلاقات الجزائريةالفرنسية صيغة رسمية إلا حوالي 1578م بالرغم من التقارب الذي شهدته سابقا، وقد كان ذلك بإنشاء القنصلية الفرنسية بالجزائر، فتم قبول القنصل الفرنسي بها بعد 15 سنة بين الأخذ والرد، وكان هذا بعد حرص وإلحاح فرنسا على التمثيل الدبلوماسي بالجزائر خدمة لتجارتها وتجارها وتدعيما لمكانتها في الجزائر والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

كما عرفت العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا تطورا كبيرا، هذا ما ساعد على السير الحسن للعلاقات السياسية التي كانت طيبة إذا ما قورنت بغيرها من الدول الأوربية الأخرى، فكانت السباقة من بين الدول الأوربية بإقامة علاقات دبلوماسية وذلك بإرسال أول قنصل أوربي للإيالة، وتوالت القناصل والسفراء الفرنسيون إلى الجزائر.

وبهذا يمكن القول أن العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 16م اتسمت بالتعاون، فكانت البحرية الجزائرية تقدم دعما نافعا لفرنسا في تصديها للأعداء سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ويعود هذا التقارب لوجود الخطر الإسباني الذي مثل عدوا مشتركا في تلك الحقبة .

**-العلاقات الجزائرية – الفرنسية بعد قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م:**

إلا أنه وبعد قيام الثورة الفرنسية سنة 1789م خشي الثوار من عزلة فرنسا عن القارة الأوربية والعالم الخارجي، فتحالفوا مع العثمانيين ومنحهم السلطان العثماني الاعتراف بالجمهورية الفرنسية وكان ذلك سنة 1794م وهو ما أعطى جرأة لفرنسا حتى تتطلع إلى استكمال هذه الثورة، وذلك بنظرتها إلى أهمية البحر المتوسط والبلاد الواقعة شواطئه عليه فمن أسباب الحملة الفرنسية على مصر كان خروج فرنسا عن عزلتها وتوجهها نحو العالم بالإضافة إلى ضرب بريطانيا من خلال مصالحها في مصر، وهذا في سياق التنافس الذي بينهما ومنع مرور تجارة الإنجليز من مصر نحو الهند. دون أن ننسى محاولة الفرنسيين عقد معاهدة مع حكام مصر تمنح التجارة الفرنسية بعض الضمانات ومن هذا فقد أعلن العداء على الدولة العثمانية باعتبار مصر ولاية تابعة لها بزعامة "نابليون بونابرت"، وبمجرد السماع بهذا الخبر أعلن الباب العالي الحرب على فرنسا وأمر كل الولايات التابعة له بأن تعلن الحرب هي أيضا .

وفي أوت 1798م أرسل السلطان العثماني برسالة إلى باشا الجزائر يعلمه بأن حملة نابليون على مصر قد تحدد السلام في البحر المتوسط، وطالبه بإعلان الحرب على فرنسا موضحا نوايا والأبعاد الاستعمارية لفرنسا بأنها تسعى إلى إقامة إمبراطورية واسعة

إلا أن داي الجزائر مصطفى باشا وبحكم العلاقات الطيبة والسليمة بين فرنسا وإيالة الجزائر، رفض الامتثال لأوامر السلطان لتعارضها مع مصالح الجزائر ففي 24 ماي 1800م عقد هذا الأخير صلحا مع فرنسا طالب فيه "بونابرت" إنهاء الحرب بين الجمهورية الفرنسية والإيالة الجزائرية، كما منح القنصل الفرنسي للداي مبلغ مالي بقيمة (مليون فرنك فرنسي) وأعطاه هدايا أخرى، وبضغط من الباب العالي والذي هدد بإرسال أسطول لإحراق الشمال الإفريقي ومنع وصول المجندين إلى الأيالة الجزائرية واحتجاز سفنها في الموانئ العثمانية ما لم يقم بإلغاء تلك المعاهدات وإعلان الحرب على فرنسا، أدت هذه الضغوطات والتهديدات إلى استجابة الداي مصطفى لهذه الأوامر وقام بطرد الوكيل الفرنسي في الجزائر "ديبواتنفيل" وجميع رعاياه.

يقول خليفة حماش في هذا الصدد في مذكراته: "إن هذه الاستجابة كانت عبارة عن موقف سياسي أكثر منه إعلانا الحرب على فرنسا، حيث أن موقف الجزائر من احتلال مصر كان متذبذبا بين التأييد للباب العالي والحياد للجانب الفرنسي"

ومن هنا يمكن القول أن موقف الجزائر من الاحتلال الفرنسي لمصر كان متأرجحا بين التأييد للباب العالي تبعا لقوة الضغوط الممارسة منه على الوالي مصطفى باشا والحياد بالنسبة لفرنسا تبعا النشاط دبلوماسيتها نحو الايالة.

- **دور بحارة الجزائر في تقديم المساعدات العسكرية لفرنسا :**

أما إذا تطرقنا إلى دور بحارة الجزائر في تقديم المساعدات العسكرية لفرنسا فقد قاد خير الدين الأسطول العثماني في سنة 1543م لنجدة فرنسا بعد طلب الملك الفرنسي "فرونسوا الأول" من السلطان سليمان القانوني" إرسال أسطوله لمساعدته في مواجهة شرلكان، فقبل السلطان طلب الملك وأرسل له المدد.

وبعد إتمام الاستعدادات خرج خير الدين من الدردنيل في أواخر ماي 1543م على رأس أسطول يتكون من 112 شانية و40 سفينة، على متنها أربعة عشر وألف رجل ورافقه في رحلته السفير الفرنسي بولين، ولما وصل إلى سواحل كلابريا التي كانت تابعة للإسبان هاجمها ثم توجه نحو مدينة ريجيو

بخليج مسينا حيث تعرض إلى قصف مدفعي من طرف حاكم المدينة هذا ما اضطر به إلى مهاجمة المدينة وإخلاءها من سكانها بعد سيطرته عليها .

وصل الأسطول العثماني إلى مدينة نيس في 05 جويلية 1543م، ثم واصل سيره إلى أن بلغ مدينة مرسيليا حيث استقبل بحفاوة، وهناك انضم إليه الأسطول الفرنسي بقيادة فرونسوا ديبوربون الذي وضع نفسه تحت قيادة وتصرف خير الدين، الذي أصبح تبعا لذلك القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية – الفرنسية).

بعد أن أصبح خير الدين قائدا لقوى التحالف الفرنسية العثمانية قام بمهاجمة مدينة نيس حيث وصل الأسطول المشترك إلى ميناء "فرانش" الواقع شرق مدينة نيس، ففرض عليها حصارا استمر مدة خمس أيام لكن سكانها استماتوا في المقاومة مما أدى بخير الدين إلى قصفها بالمدفعية لمدة أسبوعين حينئذ اضطر السكان إلى تسليم المدينة في 22 أوت 1543م

في هذا الصدد نجد المؤرخ "جون ب وولف" يقول: "أن خير الدين انزعج من تصرفات الفرنسيين خاصة لما طلبوا منهم تزويدهم بالبارود بعد أن نفد منهم ..."، وكان خير الدين غير مطمئن على الإقامة في هذا الميناء لذلك اضطر فرونسوا الأول إلى وضع ميناء طولون تحت تصرفه وطلب من سكان المدينة التخلي عن مساكنهم خير الدين ورجاله.

وقبل خير الدين تمضية فصل الشتاء في ميناء طولون بشرط أن يتكفل فرنسوا الأول بتموين الجيش وفعل فرنسوا ذلك حيث زوده بثمانية ألاف ريال فرنسي لإنفاقها على جنده، وظل خير الدين مرابطا بأسطوله بمدينة طولون إلى غاية 1544م، وقد اقتنع بأن فرنسوا الأول قد فشل في الالتزام بوعده ونتيجة ذلك أظهر كرها عميقا للملك الفرنسي وشعبه، ومن جهة أخرى رأى فرنسوا الأول أن ثمن الإبقاء على الأسطول العثماني كان يشكل عبئا ثقيلا على خزينته فوجد من الأحسن عقد سلم مع شارلكان.

إن المساعدات العسكرية الجزائرية لفرنسا اتسمت بالتتابع حيث استمر التحالف مع خير الدين وقيادة الأسطول الجزائري لنجدة الملوك الفرنسيين نتيجة العلاقات الحسنة بين فرنسا والدولة العثمانية، ومثال ذلك عام 1552م قام بايلرباي الجزائر الرايس صالح قام بنجدة للملك الفرنسي هنري الثاني ضد "فليب الثاني" ابن شارلكان.

وفي عام 1593م استنجد "هنري الرابع" بالقوات العثمانية ليرغم سكان مرسيليا بالاعتراف بسلطته فأمر السلطان العثماني "مراد الثالث" حاكم الجزائر "خضر باشا" بإنجاده فوجه هذا الأخير قوات البحرية الجزائرية إلى فرنسا التي أرغمت السكان على الاعتراف بسلطة ملكهم هنري الرابع وذلك عام 1596م.

ومما سبق ذكره نستنتج أن العلاقات العثمانية الفرنسية كان لها تأثير بالباب العالي من خلال قبول المعاهدات التي كانت مع فرنسا والتي ساهمت بشكل كبير في تدخل الأخيرة في الإيالة الجزائرية.